صفحة من تاريخ

استيطان العرب لمصر

للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

كان العرب فى مصر جلّهم من الجند المقاتلة وقت الفتح ، ولم يزد عددهم على ستة عشر ألفاً فى هذا الوقت . ولم تكن سياسة الخلفاء الراشدين تسمح بنزول الجنـد فى ريف مصر بقصد إقطاعهم الأراضى حتى لا يصرفهم ذلك عن الجهاد . وزاد عدد الجند العرب فى مصر فبلغ أربعين ألفاً فى عهد معاوية بن أبى سفيان

ولا شك أن هذا العدد أخذ يزداد بازدياد العنصر العربى فى مصر ، وهذا نتيجة طبيعية لما كان من لحاق نساء الأجناد وأولادهم للإقامة معهم فى هذا البلد ، واتخاذهم إياه وطناً جديداً ، وما كان أيضاً من التزاوج والاندماج فى سكان البلاد الأصليين . ولعل العرب لم يفطنوا لأمر إحلال الكتائب بعضهم محل بعض فى الأقاليم الإسلامية ، اللهم إلا ما كان من تناوب الأجناد الإقامة فى الثغور كل ستة أشهر . وليس لدينا من المعلومات التاريخية ما يثبت أن قاعدة استبدال الكتائب فى الولايات كانت معروفة عنـد غير العرب كالرومان والفرس . بيد أن عدم احتمال هذا الأمر أقرب إلينا من جواز احتماله لما كان يتطلبه من كثرة الأسفار

غير أن العرب فى مصر — على الرغم من زيادة عددهم كما بينا — كانوا فى أوائل القرن الثانى للهجرة من القلة بحيث رأى عبيد الله بن الحَبْحَاب عامل الخراج على مصر أن يشير على الخليفة هشام بن عبد الملك أن يأذن له فى إسكان العرب من قيس فى أرض الحوف الشرقي ، وأكد للخليفة أن نزولهم لا يضر بسكان البلاد . وكان يقيم فى هذه الكورة نفر يسير من جديلة

نزلت قيس جهة بلبيس ، وسرعان ما قارب عددهم خمسة آلاف ، وأخذوا يستثمرون الأرض ويتجرون فى الإبل والخيل ، وكانوا يحملون عليها غلات أرضهم إلى الفلزم حيث تشحن إلى بلاد العرب . هذا وقد كان لقيس [1] ضلع كبير فى الفتن التى أقامها المصريون فى وجه الولاة حين هموا بزيادة الخراج [1]

ولقد وفدت القبائل العربية على مصر تدريجيًّا ، فجاءت قبيلة الكنز من ربيعة فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى فأقاموا فى الصعيد ، واندمجوا فى السكان بالمصاهرة ، وكانت لهم ضلع فى الثورات والفتن التى قامت بمصر وعلى الأخص فى أواخر عهد الفاطميين إذ ثاروا على صلاح الدين الأيوبى بعد أن تولى الوزارة بقليل

على أن اندماج العرب بالمصريين اندماجاً فعليًّا لم يتم إلا بعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان ، وأحل مكانهم جنداً من الأتراك ، فانتشر العرب فى الريف واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق ؛ وازداد اندماجهم فى السكان بالمصاهرة ، ومن ثم أخذ التمييز العربى يتلاشى شيئاً فشيئاً ، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال الولاة من الأتراك محلهم ؛ ولم يحكم مصر بعد ذلك عربى إلا إذا استثنينا عنبسة بن اسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) والخلفاء الفاطميين

ثم فتح مصر على أيدى جند العرب ، ولم يشأ عمر أن يقطعهم أرضها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الجهاد وفتح البلاد المجاورة لمصر لتأمن مصر نفسها وليستقر بذلك سلطان العرب فيها . وقد فتح العرب فى ولاية عمرو بن العاص الأولى بلاد برقة سنة إحدى وعشرين للهجرة وطرابلس فى السنة التالية وغزوا إفريقية سنة ٢٧ هـ تحت قيادة عبد الله بن سعد (٢٥ — ٣٥ هـ) والى مصر إذ ذاك ، وهزموا الروم فى هذه البلاد وقتلوا ملكهم ، وخربوا قاعدة ملكه وتوغلوا فى بلاد إفريقية وصالحوا أهلها [2] ، وغزوا بلاد النوبة سنة ٣١ هـ حتى وصلوا دنقلة ، وفى هـذه السنة اشتبك الأسطول المصرى مع أسطول الروم فانتصر الأول فى واقعة ذات الصوارى ، ثم غزوا طرابلس مرة أخرى فى ولاية عمرو بن العاص الثانية

ويظهر لنا أن هـذه الغزوات لم يكن القصد منها الاستعمار لهذه البلاد وإدخالها فى حوزة العرب كما كانت الحال بالنسبة إلى مصر ، وإنما كان قصد الخلفاء وولاتهم على مصر القيام بها لتأمين

(١) قال الكندى (ص ٩٤ — ٩٦) : إن قيساً ثارت فى وجه مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية حين جاء إلى مصر هارباً من وجه العباسيين = وقال المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٨) : إن قيساً هذه مالأت مروان

(١) أنظر الكندي ص ٧٦ والخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٠ — ٨١

(٢) قيل إن أهل إفريقية صالحوا عبدالله بن سعد على ٢٠٠٠٠٠٠ ٢/٥ دينار ثم شرطوا له بعد أن توغلت جنوده فى داخل البلاد ٣٠٠ قنطاراً من الذهب على أن يخرج من بلادهم فقفل بعد أن أقام المسلمون سنة وثلاثة أشهر